الصَّبْر على محنة الفقر

الفقر : هو ضِيق منافذ العيش وموارد الرزق ، والناس فيه منازل ؛ فمنهم من لا يجد شيئاً يسدُّ به رمقه ، وهذا صاحب الفقر المدْقع ، ومنهم من يجد بعض ما يسدَّ به رمقه ، ومنهم من لا يجد كفايته .

ويُعدّ الفقر محنةً وابتلاءً نظراً لما فيه من المشقّة والشدَّة على الإنسان . ولقد جعله الله تعالىٰ امتحاناً للناس واختباراً لصَبْرهم ورضاهم عنه سبحانه ، حيث قسم بينهم معيشتهم ، فمنهم من وسَّع عليه الرزق ومنه من قدره عليه ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله سبحانه :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل : ٧١] .

وفي قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ [العنكبوت : ٦٢] . فالفقر رزق مضيّق ، والغنى رِزْق موسَّع .

فمن صَبَر علىٰ الفقر ، وقنع بما رزقه الله ، ورضي عنه اجتاز امتحانه بما يفضي به إلىٰ جنّة عرضها السموات والأرض ، وكان من الرابحين .

وحسبنا دليلاً علىٰ ذلك قوله ﷺ : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمئة عام »[1] . وقوله : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء »[2] . وقوله : « هل تدرون أوّل من يدخل الجنّة من خلق الله عزّ وجلّ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثُّغور ، وتُتَّقىٰ بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً »[3] . وقوله : « إنَّ حوضي ما بين عَدَن إلىٰ عُمان أكوابُهُ عدد النُّجوم ، ماؤه أشدُّ بياضاً من الثّلْج وأحلىٰ من العسل ، وأكثر الناس وُروداً عليه فقراء المهاجرين » قلنا : يا رسول الله صِفْهم لنا ، قال : « شُعْثُ الرُّؤوس ، دُنْسُ الثِّياب الذينَ لا ينكحون المنعّمات ، ولا تُفتَحُ لهُمُ السُّدُد ،

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) رواه أحمد ورواته ثقات ، وابن حبان في صحيحه مرفوعاً .

الذين يُعْطون ما عليهم ، ولا يُعطون مالهم »[1] . وقوله : « إنَّ فُقراء المسلمين يُزَفُّون كما يُزَفُّ الحمام ، فيُقال لهم : قِفوا للحساب ، فيقولون : والله ما تركنا شيئاً نُحاسبُ به ، فيقول الله عزّ وجلّ : صدق عبادي ، فيدخلون الجنَّة قبل الناس بسبعين عاماً »[2] . وقوله : « ألا أخبركم عن ملوك الجنَّة؟ » قلنا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « رجلٌ ضعيفٌ مستضعف ، ذو طِمْرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه »[3] . وقوله : « من قلَّ مالُه ، وكثُرت عيالُه ، وحَسُنت صلاتُه ، ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة ، وهو معي كهاتين »[4] .

والفقر مضمار امتحانٍ خاضه أشرافُ الخلق من الأنبياء والأولياء والصدِّيقين والصالحين . ولنا في رسول الله محمد ﷺ أُسوة حسنة وإمام مبين في الصَّبْر على محنة الفقر

---

(١) رواه الطبراني مرفوعاً ورواته رواة الصحيح ، والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه الطبراني وأبو الشيخ .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) رواه أبو يعلىٰ والأصفهاني مرفوعاً .

وبلاء الفاقة ، فلقد عانىٰ ﷺ من الفقر الكثير حتى آخر لحظة في حياته ، فجاء في سيرته أنَّه كان يمرُّ عليه الهلال ثُمَّ الهلال ثُمَّ الهلال لا يُوقد في بيته نار ، وكانت الدنيا أبعد ما تكون عن مظاهر عيشته ووقائع حياته مع أهل بيته . فجاء أن رجلاً جاء إلى النَّبي ﷺ فقال : إنِّي مجهود ، فأرسل إلىٰ بعض نسائه ، فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثُمَّ أرسل إلى أخرىٰ ، فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهنَّ مثل ذلك ، فقال : « من يضيّف هذا الليلة؟ » ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلىٰ رحله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ .

وجاء في رواية أخرى : قال : هل عندك شيء؟ قالت : لا ، إلاّ قوت صِبياني . قال : فعلِّليهم بشيءٍ ، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم ، وإذا دخل ضيفنا ، فأطفئي السِّراج ، وأريه أنَّا نأكل . فقعدوا وأكل الضيف ، وباتا طاوِيَيْن ، فلمَّا أصبح غدا إلى النَّبي ﷺ فقال : « لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة »[1] .

---

(١) متفق عليه .

ودخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وهو علىٰ حصيرٍ قال : فجلستُ فإذا عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعيرٍ نحو الصاع ، وقَرَظ في ناحيةٍ في الغرفة ، وإذا إهابٌ معلَّق ، فابتدرت عيناي ، فقال : « ما يُبكيك يا بن الخطَّاب؟! » ، فقال : يا نبيَّ الله ، وما لي لا أبكي ، وهذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرىٰ وقيصر في الثِّمار والأنهار ، وأنت نبيُّ الله وصفوته ، وهذه خزانتك . قال : « يا بن الخطّاب أما ترضىٰ أن تكون لنا الآخرةُ ولهم الدنيا؟ »[1] .

وعندما أتاه أحد أصحابه ، فقال له : يا رسول الله ، والله إنِّي لأحبُّك ، فقال : « انظرْ ماذا تقول؟ » قال : والله إنِّي لأحبُّك ، ثلاث مرات ، فقال : « إنْ كُنتَ تحبُّني فأعِدَّ للفقر تجفافاً ، فإنَّ الفقر أسرع إلىٰ من يُحبُّني من السَّيل إلىٰ منتهاه »[2] .

---

(١) رواه أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وكان ﷺ يجالس الفقراء من أصحابه ، ويسامرهم عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فكان إذا لقيهم استقبلهم مبتسماً ، وبدأهم بالسلام ، وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربِّي أن أبدأهم بالسلام » . وروى أبو سعيد رضي الله عنه : جلستُ في عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإنَّ بعضهم ليستتر ببعض من العُرْي ، وقارىء يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا ، فلمّا قام رسول الله ﷺ سكت القارىء ، فسلَّم رسول الله ﷺ ثُمَّ قال : « ما كنتم تصنعون؟ » قلنا : نستمع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ ، فقال : « الحمد لله الذي جعل من أمتي مَنْ أُمِرتُ أن أصبر نفسي معهم » . قال : فجلس ﷺ وسطنا ليعدل نفسه فينا ، ثُمَّ قال ﷺ هكذا ، فتحلَّقوا وبرزتْ وجوهُهُم له ، فقال : « أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنُّور التامِّ يوم القيامة ، تدخلون الجنَّة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمئة عام »[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود .

وعندما علم أنَّ أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه ربّما قال شيئاً يزعج هؤلاء الفقراء قال له : « يا أبا بكر ، لعلَّك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربَّك » ، فأتاهم أبو بكر فقال : « يا إخوتاه ، أغضبتكم؟ » قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي[1] . وكان من دعائه ﷺ : « اللَّهُمَّ أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً، واحشُرني في زُمرةِ المساكين يوم القيامة»[2] .

وجاء في الصحيح أنَّه ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ ، وأدرك السلف رضي الله عنهم أنَّ الفقر من متاع الدنيا وزينتها ليست صفةَ نقصٍ في طُلاَّب الآخرة بل هي علامة إدراكهم ما يعملون له وبلوغهم ما يسألون الله إياه ، حيث جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذرٍّ ، فقال : يا أبا ذر أعلمت أنَّ بين يدي الساعة عقبةً كؤوداً لا يصعدها إلاّ المخِفُّون ، فقال رجل : يا رسول الله أمِن المخفِّين أنا أم من المثْقلين؟ قال : عندك طعام يوم؟ قال : نعم ، وطعامُ غدٍ؟

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه الترمذي وغيره مرفوعاً .

قال : نَعَم ، وطعام بعد غدٍ؟ قال : لا . قال : لو كان عندك طعام ثلاثٍ كنت من المثقلين »[1] .

وروى النسائي وابن حبّان في صحيحه : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لأبي ذرٍّ : « ألا ترى كثرة المالِ هو الغِنى » ، قال : نعم يا رسول الله . قال : «إنَّما الغنىٰ غنىٰ القلب والفقر فقرُ القلب» .

فأنساهم رضي الله عنهم غنىٰ قلوبهم بالآخرة ألمَ الفقر وقسوةَ الفاقة ، فما أكثر الصفحات التي كتبتها وقائع حياتهم مفعمةً بالصبر والثبات في محنة الفقر ، وإليك صوراً منها :

علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين) يعرض سيفه للبيع :

أخرج يعقوب بن سفيان عن مجمع بن سمعان التيميِّ ، قال :

خرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بسيفه إلى السوق ، فقال : من يشتري منّي سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعةُ دراهم أشتري بها إزاراً ما بعتُه[2] .

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) حياة الصحابة ٢/ ٣١٠ .

عليٌّ بن أبي طالب وفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بين أنياب الفقر، درعهما الصَّبْر:

عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عليٍّ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا زوَّجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أَدَم حشوها ليف ورحاءين وسِقاءين ، قال : فقال عليٌّ لفاطمة يوماً : لقد شقوت حتى أسليتُ صدري ، وقد جاء الله بسبْيٍ ، فاذهبي ، فاستخدمي ـ أي اطلبي خادماً ـ فقالت : وأنا ، والله ، قد طحنتُ حتىٰ مَجلَت يداي . فأتت النَّبي ﷺ فقال : « ما جاء بكِ ، أيْ بُنيَّة؟ » ، فقالت : جئتُ لأُسلِّم عليك . واستحيتْ أن تسأله ، ورجعت ، فأتياه جميعاً ، فذكر له عليٌّ حالهما ، قال : « لا والله لا أُعطيكما ، وأدع أهل الصُّفَّة تتلوىٰ بطونهم لا أجد ما أُنفِق عليهم ، ولكن أبيع وأُنفِق عليهم أثمانهم » . فرجعا ، فأتاهما وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطَّيا رؤوسهما بدت أقدامهما ، وإذا غطَّيا أقدامهما انكشفت رؤوسُهما ، فثارا ، فقال : « مكانَكُما ، ألا أُخبركما بخيرٍ ممَّا سألتُماني؟ » . فقالا : بلىٰ . فقال : « كلمات علَّمنيهنَّ جبريل : تُسبِّحان في دُبر كلِّ صلاةٍ عَشْراً ، وتحمدان عَشْراً ،

وتُكبِّران عَشْراً ، وإذا أَوَيْتُما إلى فراشكما سبِّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين » .

قال عليٌّ : فوالله ، ما تركتُهنَّ مُنذ علَّمنيهُنَّ . فقال له ابنُ الكواء : ولا ليلةَ صِفِّين ! قال : قاتلكم الله يا أهل الطُّروق ، ولا ليلة صِفِّين[1] .

فراغ بيت أبي ذرٍّ رضي الله عنه من أثاث الدنيا :

دخل رجل على أبي ذرٍّ رضي الله عنه فجعل يقلِّب بصره في بيته ، فقال :

يا أبا ذرٍّ ، ما أرىٰ في بيتك متاعاً ولا أثاثاً .

فقال : إنَّ لنا بيتاً نوجِّه إليه صالح متاعنا .

فقال : إنَّه لا بُدَّ لك من متاعٍ ما دمتَ هاهنا .

فقال : إنَّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه[2] .

---

(١) الإصابة ٤/ ٣٧٩ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي : ٣٦٨ .

فقر سعيد بن عامر وهو أمير علىٰ حمص :

لمّا أتى عمر رضي الله عنه الشامَ ، طافَ بكُورِها ، فنزل بحضرة (حمص) ، فأمر أن يكتبوا له أفقرهم ، فرُفع إليه الكتاب ، فإذا فيه سعيد بن عامر بن جُذَيْم أميرها . فقال : مَنْ سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا . قال : أميركم؟! قالوا : نعم . فعجب عمر ، ثُمَّ قال : كيف يكون أميرُكم فقيراً؟ أين عطاؤه ، فأين رزقه؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين لا يُمسِك شيئاً . فبكىٰ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثُمَّ عمد إلى ألف دينارٍ فصرَّها ، ثُمَّ بعث بها إليه ، وقال : أقرئه منِّي السلام ، وقل له : بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها علىٰ حاجتك . فجاء بها إليه الرسول ، فنظر ، فإذا هي دنانير ، فجعل يسترجع ، فقالت له امرأته : ما شأنك يا فلان ، أمات أمير المؤمنين؟ قال : بل أعظم من ذلك . فقالت : فظهر من آيةٍ؟ قال : بل أعظم من ذلكَ . قالت : فأمرٌ من أمر الساعة؟ قال : بل أعظم من ذلك . قالت : ما شأنك؟ قال : الدنيا ، أتتني الفتنة ، دخلت عليَّ . قالت : فاصنع فيها ما شئتَ ، قال : عندكِ عون؟ قالت : نعم . فأخذ بعَتَلةٍ فصرَّ الدنانير

فيها صرّاً ، ثُمَّ جعلها في مخلاة ، ثُمَّ اعترض جيشاً من جيوش المسلمين ، فأمضاها كلُّها ، فقالت له امرأته : رحمكَ الله ، لو كنتَ حبستَ منها شيئاً نستعين به . فقال لها : إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنّة إلىٰ أهل الأرض ملأت الأرض ريح مسك » ، وإنِّي والله ما كنت لأختاركِ عليهنَّ ، فسكتت[1] .

أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لا يملك سوىٰ قميص واحد:

أبطأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يوماً عن الجمعة قليلاً ، فعُوتب في ذلك ، فقال : إنَّما انتظرتُ قميصي غسلتهُ أن يجفَّ .

ودخل مسلمةُ بن عبد الملك علىٰ عمر بن عبد العزيز في مرضه وعليه قميص وسِخ ، فقال لفاطمة زوجة عمر ، وهي أخت مسلمة بن عبد الملك : ألا تغسلوا قميصه؟ قالت : والله ما له غيره ، وإن غسلناه يبقىٰ لا قميص له[2] .

---

(١) « كتاب الزهد » للإمام أحمد : ١٨٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

محاورة بين رابعة العدوية وسفيان الثوريّ :

لقي سفيان الثوريُّ رحمه الله رابعة العدويَّةَ وكانت زريَّة الحال فقال لها : يا أُمَّ عمرو ، أرى حالاً رثَّة ، فلو أتيتِ جارِكِ فلاناً لغيَّر بعضَ ما أرىٰ . فقالت له : يا سفيان ، وما ترىٰ من سوء حالي؟ ألست على الإسلام ، فهو العزُّ الذي لا ذلَّ معه ، والغنىٰ الذي لا فقر معه ، والأُنس الذي لا وحشة معه ، والله إنِّي لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها؟ فقام سفيان وهو يقول : ما سمعت مثل هذا الكلام[1] .

مفتي المدينة يبيع خشب سقف بيته من شدَّة الفقر :

قال ابن القاسم :

أفضىٰ بمالك ـ رحمه الله ـ طلبُ العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ، ثُمَّ مالت عليه الدنيا بعد .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٢٧٦ .

وقال مالك رحمه الله : لا يُنال هذا الأمر ـ يعني العلم ـ حتىٰ يُذاق فيه طعم الفقر[1] .

إمام العربيّة الفراهيديّ يغالب الفقر بالصَّبْر :

قال النَّضْر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد الفراهيديِّ إمام العربيَّة الشهير : أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البَصْرة ، لا يقدرُ علىٰ فَلْسَيْن ، وأصحابُه يكسبون بعلمه الأموال ، ولقد سمعتهُ يوماً يقول : إنِّي لأُغلِق عليَّ بابي فما يجاوزه همِّي .

تناوب أخوين من أهل العلم ثياب الخروج إلىٰ السُّوق :

حكى المؤرِّخ النسّابة السمعانيُّ عن شيخه أبي إسحاق عليّ بن أحمد اليَزْدِيّ : أنَّه كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يقعُد[2] .

---

(١) صفحات من صبر العلماء (للشيخ عبد الفتاح أبي غدّة) : ٣٧ .
(٢) صفحات من صبر العلماء : ٦٤ .

صورة من صبر العلماء على الفقر :

قال السمعانيُّ عن شيخه عليُّ بن أحمد اليَزْديِّ :

وسمعتُه يقول يوماً ، وقد دخلتُ عليه دارَه مع عليّ بن الحسين الغَزْنويِّ الواعظ مُسلِّماً عليه ، فوجدناه عُرياناً متأزِّراً بمئزر ، فاعتذر من العُرْي وقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيِّب الطبريُّ :

قومٌ إذا غسلوا ثيابَ جمالِهم لَبِسوا البُيوتَ إلىٰ فراغ الغاسِلِ[1]

من ثمرة الصَّبْر على الفقر :

ذكر أبو عليّ بن شوكة قال :

اجتمعنا جماعةً من الفقهاء ، فدخلنا على القاضي أبي عليٍّ الهاشميِّ ، فذكرنا له فَقْرنا وشدَّة ضُرِّنا ، فقال لنا : اصبروا ، فإنَّ الله سيرزقكم ، ويوسِّع عليكم ، وأُحدِّثكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم :

---

(١) المصدر السابق .

أذكر سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئاً عظيماً ، حتى بِعْتُ رحلَ داري ، ونفِد جميعُه ، ونقضْتُ الطبقة الوسطىٰ من داري ، وبعتُ أخشابَها ، وتقوَّتُّ بثمنها ، وقعدتُّ في البيت فلم أخرُج ، وبقيتُ سنةً ، فلمّا كان بعد سنةٍ قالت لي المرأة : الباب يُدَقُّ ، فقلت لها : افتحي الباب ، ففعلتْ ، فدخل رجل ، فسلَّم عليَّ ، فلمّا رأىٰ حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس من شدَّةٍ تصيبُك إلاّ ... سوف تمضي وسوفَ تُكشَف كَشْفَا
لا يضقْ ذرعُك الرّحيبُ فإن الـ ... ـنّارَ يعلو لهيبُها ثمَّ... تُطفا
قد رأينا مَنْ كان أشفىٰ على الهُلْـ ... ـكِ فوافَتْ نجاتُه حين أشفىٰ

ثمَّ خرج عنّي ولم يقعد ، فتفاءلتُّ بقوله . فلم يَخرُج اليومُ عنّي حتى جاءني رسولُ القادر بالله ، ومعه ثياب ودنانير ، وبغلة بمركب ، ثُمَّ قال لي : أجب أمير المؤمنين ، وسلَّم إليَّ الدنانير والثياب والبغلة ، فغيَّرتُ عن حالي ، ودخلتُ الحمّام ، وصِرتُ إلى القادر بالله ، فردَّ إليَّ قضاء الكوفة وأعمالها ، وأثرى حالي[1] .

---

(١) صفحات من صبر العلماء : ٤٨ .

صورة من محنة الفقر وعجيب الإيثار :

روىٰ المسعوديّ في « مروج الذَّهب » : أنَّ الواقديّ قال :

كان لي صديقان أحدهما هاشميٌّ ، وكنّا كنفسٍ واحدة ، فنالتني ضائقة شديدة ، وحضر العيدُ ، فقالت امرأتي : أمّا نحن في أنفسنا ، فنصبر علىٰ البؤس والشدَّة ، وأما صبياننا هؤلاء ، فقد قطَّعوا قلبي رحمةً لهم ؛ لأنَّهم يرون صبيان الجيران قد تزيَّنوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم وهم علىٰ هذه الحالة من الثياب الرثَّة ، فلو احتلت في شيءٍ تصرفه كسوتهم .

قال : فكتبتُ إلى صديق لي وهو الهاشميُّ أسأله التوسعة عليَّ بما حضر ، فوجَّه إليَّ كيساً مختوماً ذكر أنَّ فيه ألفَ درهمٍ ، فما استقرَّ قراري حتىٰ كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوتُ إلىٰ صاحبي الهاشميِّ ، فوجَّهت إليه الكيس بحاله ، وخرجتُ إلىٰ المسجد ، فأقمتُ فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي ، فلمّا دخلتُ عليها استحسنت ما كان منِّي ولم تعنِّفني عليه ، فبينما أنا كذلك إذ وافىٰ صديقي الهاشميُّ ومعه الكيس

كهيئته ، فقال لي : اصدُقني عمَّا فعلتَه فيما وجَّهت به إليك . فعرَّفته الخبر علىٰ وجهه . فقال لي : إنَّك وجَّهت إليَّ وما أملك علىٰ الأرض إلاَّ ما بعثت به إليك ، وكتبتُ إلىٰ صديقنا أسأله المواساة ، فوجَّه كيسي بخاتمي .

قال الواقديُّ : فتواسينا ألف درهم فيما بيننا ، ثُمَّ إنَّا أخرجنا للمرأة مئة درهم قبل ذلك .

ونُمي الخبر إلىٰ المأمون ، فدعاني وسألني ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكلٍّ واحد منَّا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار .

* * *